مكتبة البنين
قسم الدوريات

جامعة قطر
ادارة المكتبات الجامعية
مكتبة الدوريات

حَوْلِيّة كليّة الإنسَانيّات والعُلُوم الاجْتِمَاعِيّة

العدد السابع عشر

١٤١٥هـ / ١٩٩٤م

القرطاس في الحضارة العربية

أ. د. يحيى وهيب الجبوري
أستاذ بكلية الآداب ـ جامعة قاريونس ـ بنغازي

القرطاس (البردي)

ترد في كتابات القدامى ، وفي الشعر الجاهلي خاصة عدة ألفاظ تدل على المكتوب وما كُتب عليه ، من هذه الألفاظ : الصحيفة ، الكتاب ، الزبور ، وينبغي أن نقف عندها قليلاً قبل الكلام على القرطاس .

أ ـ الصحيفة :

وتدل على المكتوب وما يكتب به ، ولم تخصص بمادة معينة ، فقد تكون جلداً أو قماشاً أو نباتاً أو حجراً أو عظماً أو ورقاً ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي .

فقد جاءت في القرآن الكريم بصيغة الجمع ثماني مرات في قوله تعالى : ﴿ رسولٌ من الله يتلو صُحُفاً مُطَهَّرَة ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ إن هذا لفي الصُحُفِ الأولى صُحُفِ إبراهيمَ وموسى ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ كلاَّ إنَّها تذكرةٌ فمن شاء ذكره في صحفٍ مكَرَّمة مرفوعة مطهرَّة ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا يأتينا بآيةٍ من ربِّه أوَ لَمْ تأتِهم بيِّنةُ ما في الصُحُفِ الأولى ﴾[4] ، وقوله تعالى : ﴿ أو لم يُنَبَّأ بما في صُحُفِ موسى ﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿ بل يريدُ كلُّ امرىءٍ منهم أن يُؤتى صُحُفاً مُنَشَّرة ﴾[6] ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا الصُحُفُ نشرت ﴾[7] .

أما ما جاء من ذكر الصحيفة والصحف في أقوال الرسول والصحابة فكثير جداً يفوت الحصر ، ويكفي أن نقرأ في الصحيفة التي وضعها الرسول ﷺ أول

الهجرة (بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم) ، وقد عرفت بصحيفة الرسول أو الوثيقة ، وقد تكررت كلمة الصحيفة فيها سبع مرات بلفظ الإفراد[٨] .

وقد جاءت (الصُّحُف) في الشعر الجاهلي لتعني العهود والمواثيق ، من ذلك قول حسان بن ثابت :[٩]

وإنَّ ما بيننا وبينكمُ حينَ يُقالُ الأرْحَامُ والصُّحُفُ

ومثله قول قيس بن الخطيم :[١٠]

لمَّا بدتْ غُدْوةً جِباهُهمُ حَنَّتْ إلينا الأرحامُ والصُّحُفُ

وأبيات لقيط بن يعمر الإيادي مشهورة إذ قيد بالكتابة على الصحيفة وأنذر قومه :[١١]

سلامٌ في الصحيفةِ من لَقيطٍ إلى مَنْ بالجزيرةِ من إيادِ

ويذكر علباء بن أرقم الدَّيْن الذي ثَّبته في صحيفة :[١٢]

أخذتُ لدَيْنٍ مطمَئِنٍ صحيفةً وخالفتُ فيها كلَّ مَنْ جارَ أو ظَلَمْ

ويسجل أبو ذؤيب الهذلي كيف كان الكاتب الخميري يسجل دينا على رجل آخر ، ويثني عليه :[١٣]

فنَمْنَمَ في صُحُفٍ كالرِّيَا طِ فيهنَّ إرْثُ كتابٍ مَحِيُّ

وقد كتبت الأحلاف والمواثيق والعهود في الصحف في الجاهلية ، من ذلك حلف خزاعة بين عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ ورجال من خزاعة ، وكتب لهم الحلف أبو قيس ابن عبد مناف بن زهرة وعلقوا الكتاب في الكعبة[١٤] ، ومن أشهر هذه العهود والمواثيق صحيفة قريش التي تعاقدوا فيها « على بن هاشم بن عبد المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم »[١٥] .

ب ـ الكتاب :

أما كلمة (الكتاب) فهي أعم من الصحيفة وتدل على الشيء المكتوب ، وقد وردت في القرآن الكريم إحدى وستين ومائتي مرة إفراداً وجمعاً[١٦] ، وجاءت في كتب النبي وصحابته كثيراً ، وقد مرت بنا الصحيفة التي وضعها الرسول ﷺ أول الهجرة ، وقد جاء فيها لفظ (الكتاب) مرتين ، والكلمة من الكثرة والشيوع في كتب النبي وأخبار الصحابة بما لايدع مجالاً للاستشهاد على ذلك .

أما في الشعر الجاهلي فقد ورد ذكرها كثيراً في أشعار الجاهلين ، من ذلك قول لقيط ابن يعمر الايادي :[١٧]

هذا كتابي إليكم والنذيرُ لكم لمَنْ رأى رأيَهُ منكم ومن سَمِعَا

وفي شعر سلامة بن جندل :[١٨]

لمَنْ طَلَلٌ مثلُ الكتابِ المنَمَّقِ خَلا عَهْدُهُ بين الصُّلَيْبِ فمُطْرَقِ

وقول زهير :[١٩]

يؤخر فيوضع في كتاب فيدَّخرْ ليومِ الحسابِ أو يعَجِّلْ فيُنْقَمِ

وقول عبيد بن الأبرص :[٢٠]

لمَنْ الدارُ أفقرتْ بالجَنَاب غيرَ نُؤْيٍ ودِمْنَةٍ كالكِتَابِ

وفي شعر عدي بن زيد العبادي :[٢١]

تعرفُ أمسِ من لَمِيْسَ الطَّلَلْ مثلَ الكتابِ الدارسِ الأحْوَلْ

وقوله أيضاً :[٢٢]

ناشَدْتَنا بكتابِ اللَّهِ حُرْمَتَنَا ولم تكُنْ بكتابِ اللَّهِ تَرْتَفِعُ

وقول تميم بن أبَيَّ بن مقبل :[٢٣]

منهنَّ معروفُ آياتِ الكتابِ وقد تعتادُ تكذبُ ليلى ما تُمَنِّينَا

جـ ـ الزَّبور :

وأما كلمة (الزَّبور) فقد جاءت في الشعر الجاهلي بمعنى الكتاب

الديني ، وقد تطلق الكلمة على غيره من الكتب أيضاً ، وقد استعملها الشعراء بالمعنيين ، فمن المعنى الديني قول أمية ابن أبي الصلت :[٢٤]

وأُبْرِزُوا بصعيدٍ مُسْتَوٍ جُرُزٍ وأُنْزِلَ العَرْشُ والميزانُ والزُّبُرُ

وقول عمرو بن أحمر :[٢٥]

أتَتْ حِجَجٌ بعدي عليها فأصبحتْ كخَطِّ زَبُورٍ في مصاحفِ رُهْبَانِ

وقول عمرو بن أحمر :[٢٦]

أم لا تَزَالُ تُرَجِّي عيشةً أُنُفَاً لم تُرْجَ قبلُ ولم يُكْتَبْ بها زُبُرُ

ومن المعنى الثاني الذي يراد بالكلمة مطلق الكتاب قول لبيد :[٢٧]

وجلا السيولُ عن الطُّلولِ كأنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أقلامُهَا

وقوله أيضاً :[٢٨]

فنعافِ صارةَ فالقَنَانِ كأنَّها زُبرٌ يُرَجِّعُهَا وليدُ يَمَانِ

وقول امرىء القيس :[٢٩]

لمن طَلَلٌ أبصَرْتُهُ فشَجَاني كخَطِّ زَبُورٍ في عسيبِ يماني

واستعمل أبو ذؤيب الهذلي كلمة الزبور فعلا هو (يُزَبِّر) بمعنى يكتب في قوله :[٣٠]

عرفتَ الديارَ كرَقْمِ الدَّوَا ةِ يُزَبِّرُهَا الكاتبُ الحميري

وجاءت كلمة الزبور في القرآن الكريم تسع مرات وكلها بمعنى الكتاب الديني ، وجاءت في موضعين خاصة بكتاب داود ، في قوله تعالى : ﴿ وآتينا داودَ زَبُورا ﴾[٣١] ، وجاءت في الآيات الأخرى بمعنى الكتاب الديني في قوله تعالى : ﴿ وإنَّه لفي زُبُرِ الأولين ﴾[٣٢] ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزَّبُوْرِ من بعدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرضَ يرثُها عباديَ الصالحون ﴾[٣٣] ، وقوله تعالى : ﴿ أكفارُكُمْ خَيْرٌ من أولئكم أم لكم براءةٌ في الزُّبُرِ ﴾[٣٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وكلُّ شيء فعلوه في الزُّبر ﴾[٣٥] ، وقوله تعالى : ﴿ بالبيِّناتِ والزُّبُرِ ﴾[٣٦] ، وقوله تعالى : ﴿ فان كذَّبوكَ فقد كُذِّبَ رُسُلٌ من قبلك جاءوا بالبيِّناتِ والزُّبُرِ والكتابِ

المنير﴾[٣٧] . ولكن كلمة (الزبور) ومشتقاتها لم تشع ويكثر استعمالها بعد الإسلام شيوع واستعمال الكتاب والصحيفة .

ونعود لنقف عند القرطاس والبردي الذي كان وسيلة الكتابة والتدوين لفترة طويلة .

البَرْدي :

عرف العرب البردي منذ العصر الجاهلي باسم (القرطاس) وهي كلمة يونانية (CHARTES) ومعناها ما يكتب فيه ، ويقابلها في العربية ورقة وصحيفة[٣٨] ، وجاءت كلمة القرطاس في شعر طرفة بن العبد في معلقته يصف ناقته ويشبه حدها بالقرطاس الشامي :[٣٩]

وخَدٍ كقِرْطَاسِ الشآمي ومِشْفَرٍ كسِبْتِ اليماني قَدُّهُ لم يُجَرَّدِ

ونسب القرطاس إلى الشام لأنه كان منتشراً هناك ، ويأخذه الروم من مصر .

إن كلمة قرطاس وجمعها قراطيس قد أطلقت على ورق البردي ، وقد عرف المصريون القدماء البردي وصنعوا منه أوراق الكتابة ، يقول ابن النديم : « وكتب أهل مصر في القرطاس المصري ، ويعمل من قصب البردي »[٤٠] ، وهو « كاغد أبيض يقال له القراطيس » كما يقول ابن البيطار[٤١] وكانت هذه القراطيس أحسن ما كتب فيه ، كما يقول السيوطي[٤٢] ، وقد سمى البيروني قصب البردي : « الريش الذي يعمل منه القراطيس »[٤٣] . وتنسب بعض المصادر الإسلامية صناعة البردي إلى النبي يوسف ، قيل : « إنه أول من عمل القراطيس »[٤٤] .

كانت أوراق البردي تصنع على هيئة لفائف يبلغ طول الواحدة منها ثلاثين ذراعاً وأكثر في عرض شبر ، ويقول ابن المدبِّر عن صنع هذه اللفائف : « ولم أر شيئا في إلصاقها ألطف من أن ينقع الصمغ العربي في الماء ساعة حتى يذوب ، ثم يلصق به ، وكذلك ماء الكثير أو النشاستج[٤٥] ، ثم تطويه طياً رقيقاً وتجعله في منديل نظيف ، ويوضع تحت وسادة حتى يجف »[٤٦] ، وقد وصف

الفرد بتلر كيفية صناعة أوراق البردي فقال : « كان في مصر السفلى عدد عظيم من غياض فسيحة تنبت البردي ، ذلك النبات الطويل الحسن ، وكان الورق يتخذ من لبابه ، يشق شرائح تجعل منها صحائف بالضغط ، ثم تصقل بآلة من العاج ، وكانت الصحائف بعد ذلك يوصل بعضها ببعض فتكون لفائف يسهل استعمالها ، وكانت مقادير عظيمة من البردي تصدر من مصر من مرسى الاسكندرية المزدحمة ، ولسنا ندري متى ضعف أمر هذه التجارة ، ولا الأسباب التي أدت إلى القضاء على هذا النبات في مصر »[٤٧]

وكانت مصر تمد سائر الأقطار بأوراق البردي ، ومنها تنقل إلى بلاد الروم وإلى غيرها من الجهات [٤٨] ، وكان لقيام الدولة الأموية في الشام قد أتاح للقرطاس أن يأخذ طريقه إلى الديوان وتكتب فيه الكتب السلطانية ، فقد كانت الشام قديمة العهد بالقرطاس لصلتها بالدولة البيزنطية ووقوعها على الطريق التجاري الذي يحمل القراطيس من مصر إلى بلاد الروم .

ووصف السيوطي البردي المصري بقوله : « إن من خصائص مصر القراطيس ، وهي الطوامير ، وهي أحسن ما كتب فيه ، وهو حشيش أرض مصر ، ويعمل طوله ثلاثون ذراعاً وأكثر في عرض شبر »[٤٩] وقد وصفت قراطيس مصر بالجودة واللين ، وذكرها الشعراء من ذلك قول أحدهم :[٥٠]

حملت إليك عروسَ الثناءِ على هودجٍ ما له من بعيرِ
على هودجٍ من قراطيس مصـ ـرَ يلينُ على الطيِّ لينَ الحريرِ

ولم تكن مصر وحدها تنتج ورق البردي ، بل كانت هناك جزيرة صقلية التي ينبت فيها نبات البردي ، ولكنه لم يكن مستغلاً في الصناعة بشكل كبير ، يقول ابن حوقل في القرن الرابع الهجري في ذكر جزيرة صقلية : « وفي خلال أراضيها بقاع قد غلب عليها البربير ، وهو البردي المعمول منه الطوامير ، ولا أعلم لما بمصر من هذا البربير نظيراً على وجه الأرض ، إلا ما بصقلية منه ، وأكثره يفتل حبالاً لمراسي المراكب ، وأقله يعمل للسلطان منه طوامير القراطيس ، ولن يزيد على قلة كفايته »[٥١] .

أما في الإسلام ، فقد عرف المسلمون القرطاس وجاء ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ ولو أنزلنا عليكَ كتاباً في قِرْطاس ﴾[٥٢] ، وقوله تعالى : ﴿ تجعلونَها في قراطيسَ تبدونَها ﴾[٥٣] قيل : أي طوامير ، وعَدَّ بعض اللغويين كلمة القرطاس من الألفاظ الدخيلة ، قال الجواليق : « والقِرطاس (بضم القاف وكسرها) قد تكلموا به قديماً ، ويقال إن أصله غير عربي »[٥٤] ، وقد نقل الصولي كثيراً من الأقوال القديمة الواردة في القرطاس[٥٥] ، وقد مر بنا آنفاً أن الكلمة يونانية .

ومنذ عهد أبي بكر عرف المسلمون القراطيس ، ويبدو أنها كانت تأتيهم من بلاد الشام قبل فتح مصر ، وقيل إن أبا بكر جمع القرآن في قراطيس ، وكان سأل زيد بن ثابت في ذلك فأبى ، حتى استعان بعمر ، ففعل[٥٦] ، وذكر السجستاني كذلك حديثاً في جمع القرآن في قراطيس[٥٧] .

وكان بعض الصحابة يكتب في القراطيس منذ زمن مبكر ، من ذلك إن خالد بن الوليد كتب كتاب الأمان لأهل الشام في سنة ٦٣٥م (٢٥هـ) في القرطاس ، وكان عمرو بن العاص في زمن عمر بن الخطاب يكتب في القراطيس ، جاء في كتاب قصة البهناسة : « فاستدعى عمرو بن العاص رضى الله عنه بدواة وقرطاس ، وكتب كتاباً لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . . »[٥٨] .

أما في العصر الأموي فقد كثر استعمال القرطاس ، وأصبحت أكثر مكاتبات الأمويين على البردى والقباطي[٥٩] ، وقد نقل محمد بن عمر المدائني أن الخلفاء منذ عهد معاوية لم تزل تستعمل القراطيس امتيازاً على غيرها[٦٠] ، وكذلك نقل البلاذرى عن أبي الحسن المدائني قوله : « أخبرني مشايخ من الكتاب أن دواوين الشام إنما كانت في قراطيس من البردي ، وكذلك الكتب إلى ملوك بن أمية في حمل المال وغير ذلك[٦١] . وقيل إن أول من كتب من الخلفاء في الطوامير هو الوليد بن عبد الملك ، وأمر أن تعظَّم كتبه ويجلّل الخط الذي يكاتب به ، وكان يقول : تكون كتبي والكتب إلي خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض »[٦٢] ، ومعنى هذا أن القرطاس كان مستعملاً منذ أول العصر الأموي وأن الوليد أمر أن تكون

المكاتبات منه وإليه بالقطع الكبير من القرطاس ، وليس في جزازات كما كان شأن الكتابة إلى الخلفاء قبله ، ويفسر القلقشندي ذلك بقوله : « إن كلامه لايؤدي صورة الطومار القرطاسي ، المراد بالطومار الكامل من مقادير قطع الورق أصل عمله ، وهو المعبر عنه في زماننا بالفرخة »[٦٣] ، ولما جاء عمر بن عبد العزيز الذي عرف بالزهد والتقشف وايثار القصد ، فقد أنكر ما كان من هذا الاسراف في القرطاس وأمر » كتابه بجمع الخط كراهية استعمال الطوامير ، فكانت كتبه انما هي اشبر أو نحوه »[٦٤] ، وقد رأى عمر أن الولاة يسرفون في استعمال القراطيس فأمرهم بالاقتصاد ، من ذلك ان عمر حين ولي الخلافة وجد كتاباً كان والي المدينة أبو بكر محمد بن عمر بن حزم قد وجه به إلى سلفه سليمان بن عبد الملك يسأله فيه أن يبعث إليه بقدر من القراطيس لحاجة الديوان إليها ، فكتب عمر إليه جواباً على كتابه هذا ، يقول فيه : « أما بعد فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر أنه قد يجرى على من كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا ، فابتليت بجوابك فيه ، فإذا جاءك كتابي هذا فأرقِّ القلم ، واجمع الخط ، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة ، فإنه لاحاجة للمسلمين في فضل قول أضر بيت مالهم ، والسلام عليك »[٦٥] .

وأصبحت هذه القراطيس في العصر الأموي تثبت في الدواوين وتحفظ على شكل أوراق ، ثم جعلت في دفاتر ، يقول الثعالبي : « وكان سبيل ما يكتب (يثبت) في الدواوين أن يكتب (يثبت) في صحف ، فكان خالد أول من جعله في دفاتر »[٦٦] .

وكذلك استعمل خالد الختم في الصكوك ، قال اليعقوبي : « وأمره أن يكتب لهم صكاكاً في قراطيس ، ثم يختم أسافلها ، فكان أول من صك وختم أسف الصكاك »[٦٧] .

وكانت قراطيس البردى هي مادة الكتابة التي شاعت في العصر الأموي والفترة الأولى من العصر العباسي ، وقد تيسر البردي في هذا العصر ورخص ثمنه وكثر تداوله ، ويذكر الجهشياري أن الطومار في أيام أبي جعفر المنصور (توفى سنة

١٥٨هـ) كان يباع بدرهم[٦٨] ، وقد كثرت قراطيس البردي في خزانة المنصور ، حتى أنه أمر أن يتخلص منه بثمن بخس ، قال الجهشياري : « إن الخليفة أبا جعفر المنصور وقف على كثرة القراطيس في خزائنه ، فدعا بصالح صاحب المصلى ، فقال له : اني أمرت باخراج حاصل القراطيس من خزائننا ، فوجدته شيئاً كثيراً جداً ، فتول بيعه ، وان لم تُعْطَ بكل طومار إلا دانقاً ، فإن تحصيل ثمنه

ومن وجوه قلة ذات اليد هذه أن بعضاً من الكتاب كانوا يعتذرون إلى من يكتبون إليهم في عدم الإطالة أو رداءة الخط بسبب ضيق القرطاس أو قلته أو عدم نقاوته ، فقد ذكر محمد بن عبد المعطي الاسحاقي بعضاً من اعتذارات الكتاب في ذلك من مثل قولهم :

« اعذرني ياسيدي في القرطاس فلم يحضر نقي . . »

« واعذرني في القرطاس فأنا في ضيق من القراطيس . . »

أول المسألة أعزك الله التفضل بقبول العذر في القرطاس »[٧٨]

أماكن صناعة القرطاس :

كانت مصر مصدر القرطاس ، ففيها يصنع ويصدر إلى سائر الأقطار ، وكانت القراطيس تنتقل من مصر إلى بلاد الروم وإلى غيرها من الجهات[٧٩] ، وقد رأينا أن القرطاس صار يعمل في بغداد ، وصار له حي اسمه درب القراطيس ، وفي أيام المعتصم انتقلت صناعة القراطيس إلى مدينة سامراء ، يقول اليعقوبي : (أواخر المائة الثالثة للهجرة) : إن المعتصم حين ابتنى مدينة سامراء أقدم جماعات من أرباب المهن والصنائع لتعمر بهم مدينته ، ومن جملتهم أنه « حمل قوماً من أرض مصر يعملون القراطيس ، فعملوها فلم يأت في تلك الجودة »[٨٠] . وقد ظلت قراطيس مصر هي الأكثر والأجود ، فبلاد مصر هي أصل صناعة القراطيس ، وقد شهرت بعض مدنها بهذه الصناعة منها : بنها ، وبوصير ، وسمنود ، ودهقلة ، وكورتها التي يعمل فيها القرطاس والطومار الذي يحمل إلى أقاصي بلدان الإسلام[٨١] ، وفي كتاب البلدان[٨٢] أسماء بلدان أخرى

تعمل بها القراطيس ، منها : وسمة ، وبورة ، وهي حصن على ساحل البحر من عمـل دمياط تعمل بها الثياب والقراطيس ، ومدينة اخنو وهي في الجانب الغربي شمالي الدلتا دلتا النيل عند رشيد ، وقد ذكر عنها أنها يقال لها (وسيمة) .

وكان هناك بردي صقلية الذي استغل الأمراء الأغالبة صناعته والانتفاع به ، وحصروا استعـماله في مكاتيب الحكومة وطوامير الدولة ، وكذلك اتبع الخلفاء الفاطميون سياسة سلفهم في احتكار استعمال البردي الصقلي ، ولهذا السبب لم يكن له أثر كبير في المظهر العلمي الأفريقي أو غيره من الأمصار ، واستعيض عنه بالرق .

وظل الرق مستعملاً في المناطق التي لم يكن يثبت فيها البردى ، كالمغرب التي بقي فيها استعمال الرق إلى ما بعد القرن الرابع حتى وصول الورق ، ولذلك يسجل المقدسي في سنة ٣٧٥هـ أن المغاربة كانت : « كل مصاحفهم ودفاترهم مكتوبة في رقوق »[٨٣] .

أمـا في مصر فقد ظل البردي هو المادة التي يكتب فيها لفترة طويلة ، ففي النصف الأول من القرن الثالث كان لايزال يجلب من مصر[٨٤] ، وعلى الرغم من محاولة المعتصم صناعة البردي في سامراء إلا أنه : « لم يخرج منه إلا الخشن الذي يتكسر »[٨٥] ، وظل البردي يصنع في مصر حتى أواخر القرن الثالث ، فقد ذكر اليعقوبي أن القراطيس كانت لاتزال تصنع في مدينة بورة وهي حصن على ساحل البحر من عمل دمياط ، وفي مدينة اخنو التي يقال لها وسيمة ، وتقع على ساحل البحر في الجانب الغربي من شمال الدلتا عند رشيد[٨٦] .

ويبدو أن دخول الورق وانتشاره في مصر قد قضى على القرطاس وصناعته ، ويمكن أن نحدد انتهاء صناعة ورق البردي في مصر في القرن الرابع الهجري (العـاشر الميلادي) ، يقول آدم متز : « إن الورق البردي المؤرخ ينتهي عام ٣٢٣هـ (٩٣٥هـ) انتهاء تاماً ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠هـ (٩١٢م)[٨٧] ، وهناك من الدلائل التي تشير إلى قرب

انتهاء عهد القراطيس ي مصر ودخول الورق كمنافس شديد ، ما حكاه ياقوت في سياق ترجمته لابن حنزابة ، جعفر بن الفرات وزير الاخشيديين في مصر ، إذ يقول : « كان يعمل للوزير أبي الفضل الكاغد بسمرقند ويحمل إليه في مصر كل سنة ، وكان في خزائنه عدة من الوراقين »[٨٨] ، وقد وزر ابن حنزابه للاخشيديين سنة ٣٣٤ ـ ٣٤٩ ، وقد انتهت دولة الاخشيديين سنة ٣٥٧هـ .

وبانتشار صناعة الورق وتيسره تطوى صفحة البردي ويحل محلها ما كان يعرف بالكاغد ، ويحسن بنا قبل أن نختتم الحديث عن القرطاس أن نذكر صورته في الشعر :

يقول أبو نواس يصف فتى من فتيان الديوان قد نشر الطومار بين يديه :[٨٩]

إنَّ الـذي تَيمـني حُبُّـهُ أمـردُ من نشء الـدواوين
قد نشرَ الـطُّومَـارَ في حجـرِه مبـتـدئِـا بالـيَاءِ والـسـينَ

وقد مر بنا أنه أعرب عن حاجته إلى قطعة قرطاس وليس هو من أصحاب القراطيس :[٩٠]

أُريدُ قِطْعـةَ قِرْطَـاسٍ فتـعجـزني وجُـلُّ صحبيَ أصحابُ القراطيسِ
لحاهُـمُ الـلهُ من ودٍ ومـعـرفـةٍ إنَّ المـياسرَ منهـم كالمـفـاليسِ

ويذكـر أبـو نواس أيضـاً أدوات الصبيان التي يستعملونها في الكتـابة ومنها قرطاس الوليد :[٩١]

واحتـازَهـا لونٌ جَرى من جلدِهـا يَقَقٌ كقـرطـاسِ الـوليدِ هِجَـانِ

ويذكر أبو تمام القرطاس في سياق ذكر القلم وهو يمدح محمد بن عبد الملك الزيات :[٩٢]

إذا استعـزرَ الـذهن الجـلي وأقبلتْ أعـاليه في القـرطـاسِ وهي أسافلُ

أمـا أبـو بكر محمد بن يحيى الصولي فيذكر القرطاس في سياق مدحه لأبي القاسم الوزير :[٩٣]

ينـظمُ دُرَّاً في قراطـيسـهِ أفْـدِي أبـا الـعبَّـاسِ من ناظمِ

الهوامش :

(١) البينة ٢ .
(٢) الأعلى ١٨ ، ١٩ .
(٣) عبس ١١ ـ ١٤ .
(٤) طه ٣٣ .
(٥) النجم ٣٦ .
(٦) المدثر ٥٢ .
(٧) التكوير ١٠ .
(٨) انظر : محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ص١ ـ٧ ، الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ص ٩٤ .
(٩) ديوان حسان ، مخطوط ورقة ٢٠ مكتبة أحمد الثالث استانبول رقم ٢٥٤٣ .
(١٠) ديوان قيس بن الحطيم ص ١٩ .
(١١) الشعر والشعراء ١٥٢/١ .
(١٢) الأصمعيات ص ٦٣ ط برلين ١٩٠٢م .
(١٣) ديوان الهذليين ٦٤/١ .
(١٤) ديوان حسان : السابق ورقة ١٥ ـ ١٦ .
(١٥) ابن هشام : السيرة النبوية ٣٥٧/١ ـ ٣٧٦ .
(١٦) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٥٩٢ ـ ٥٩٥ .
(١٧) مختارات ابن الشجري ص ٧ .
(١٨) ديوان سلامة بن جندل ص ١٥ .
(١٩) ديوان زهير ص ١٨ .
(٢٠) مختارات ابن الشجري ص ١٠٥ .
(٢١) الأغاني ١٥٣/٢ .
(٢٢) شعراء النصرانية ص ٤٧٢ .
(٢٣) جمهرة أشعار العرب ص ٣١٨ .
(٢٤) ديوان أمية بن أبي الصلت ص .
(٢٥) ديوانه ص ١٢٥ .
(٢٦) جمهرة أشعار العرب ص ٣١٥ ، أنف : أي مستأنفة .
(٢٧) ديوان لبيد ص ٢٩٩ .
(٢٨) ديوانه ص ١٣٨ .
(٢٩) ديوان امريء القيس ص ٨٥ ط أبي الفضل إبراهيم .

(٣٠) ديوان الهذليين ١/٦٤ .
(٣١) الاسراء ٥٥ ، والنساء ١٦٣ .
(٣٢) الشعراء ١٩٦ .
(٣٣) الأنبياء ١٠٥ .
(٣٤) القمر ٤٣ .
(٣٥) القمر ٥٢ .
(٣٦) النحل ٤٤ .
(٣٧) فاطر ٢٥ ، وآل عمران ١٨٤ .
(٣٨) دوزى : تكملة المعاجم العربية ٢/٣٣١ ، القس طوبيا العنيسي : تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية ص ٥٥ .
(٣٩) ديوان طرفة بن العبد ص ١٩ ـ ٢٠ .
(٤٠) الفهرس ص ٢١ .
(٤١) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/٨٦ .
(٤٢) السيوطي : حسن المحاضرة ٢/٣٢ .
(٤٣) تاريخ الهند ص ٢٩٤ .
(٤٤) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٤١ ، ابن النديم : الفهرست ١/٢١ ، السيوطي : حسن المحاضرة ٢/٢٣٠ .
(٤٥) الكثير : طلع النخل . النشاستج : هو النشا ، فارسي معرب حذف شطره تخفيفاً .
(٤٦) ابن المدبر : الرسالة العذراء ص ٢٧ ـ ٢٨ .
(٤٧) فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ص ٩٥ .
(٤٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٠ ط ليدن ١٨٦٦م .
(٤٩) حسن المحاضرة ٢/١٧٣ .
(٥٠) الثعالبي : ثمار القلوب ص ٤٢١ .
(٥١) صورة الأرض ١/١٢٢ ـ ١٢٣ ط ليدن ١٩٣٨م ، وص ١١٧ ط بيروت .
(٥٢) الأنعام ٧ .
(٥٣) الأنعام ٩٠ .
(٥٤) المعرب ص ٢٧٦ ، والخفاجي : شفاء الغليل ص ١٨٠ .
(٥٥) الصولي : أدب الكتاب ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ، وقد أطلق المسلمون كلمة القرطاس على ورق البردي وكذلك أطلقوا عليه اسم الطومار وجمعها طوامير ، اطلقوها على قطع منه فصارت اسماً له ، وكلمة الطومار كثيرة التداول في المصادر العربية ، ويسمى ابن النديم ورق البردي : القرطاس المصري والطومار المصري (القاموس واللسان : قرطس) .

(٥٦) السيوطي : الاتقان .
(٥٧) المصاحف ص ٩ .
(٥٨) محمد بن محمد المعز : قصة البهناسة وما فيها من العجائب والغرائب ص ١٨ .
(٥٩) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ١/٢٥٩ .
(٦٠) القلقشندي : صبح الأعشى ٣/٤٩ .
(٦١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٧٠ ط مصر ١٩٠١م .
(٦٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٤٧ .
(٦٣) صبح الأعشى ٣/٤٩ .
(٦٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٥٧ .
(٦٥) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٤ .
(٦٦) الثعالبي : لطائف المعارف ص ٢٠ .
(٦٧) تاريخ اليعقوبي ص ١٧٧ ط ليدن ١٨٨٣م .
(٦٨) الوزراء والكتاب ص ١٣٨ .
(٦٩) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٣٨ ، وانظر كوركيس عواد : الورق ص ٤١٤ ، وكان طول الطومار ثلاثين ذراعاً وأكثر في عرض شبر . والدانق : سدس الدرهم .
(٧٠) الجهشياري : السابق ص ١٣٨ .
(٧١) ديوان أبي نواس ص ٦٠٤ .
(٧٢) ديوانه ص ٤٠٤ .
(٧٣) الجاحظ : المحاسن والأضداد ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ د ليدن ١٨٩٨م ، الطبري : تاريخ الطبري ٨/٥٤٤ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٩/٨٦ .
(٧٤) الأنساب وجه الورقة ٤٤٥ ط مرجليوت ليدن ١٩١٢م .
(٧٥) تاريخ بغداد ٢/٩١ ، ٤/٤٣٠ ، ١١/٢٣٣ ، ١٢/٣ ، ١٥١ ، ١٣/٤٥ .
(٧٦) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ١/٩٨ ، ابن ابي حاتم : آداب الشافعي ومناقبه ص
(٧٧) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ص ١٥٢ .
(٢) الاسحاقي : لطائف الأخبار في من تشرف في مصر من أرباب الدول ، مخطوط عن كروهمان : بحوث في الخطوط الإسلامية والتاريخ الحضاري ١/٧٤ .
(٧٨) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٠ ط ليدن .
(٧٩) تاريخ اليعقوبي ٢//٥٧٧ ط هوتسمان ، ليدن ١٨٨٣م ، وكتاب البلدان ص ٢٦٤ ط ليدن ١٨٩٢ .
(٨٠) ابن ذولاق : كتاب فضائل مصر ، عن محمود رمزي : القاموس الجغرافي ط القاهرة ١٩٥٨م .

(٨١) اليعقوبي ص ٢٦٤ .
(٨٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٣٩ .
(٨٣) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٢٧ .
(٨٤) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٢٥٣ .
(٨٥) كتاب البلدان ص ٩٢ .
(٨٦) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ، الترجمة العربية ٢/٢٦٨ ـ ٢٦٩ .
(٨٧) ياقوت : معجم الأدباء ٧/١٧٦ .
(٨٨) ديوان أبي نواس ص ٣٥٣ .
(٨٩) ديوان أبي نواس ص ٦٠٤ .
(٩٠) ديوانه من ٤٠٤ ، والصولي : أدب الكتاب ص ١٠٦ .
(٩١) ديوان أبي تمام ص ١٩٤ .
(٩٢) الصولي : أدب الكتاب ص ٤٧ .